

ابن مجبش التازي

تأليف: الأستاذ أبو بكر البوصيبي

من الدراسات التاريخية القيمة التي صدرت في المغرب مؤخرا دراسة منهجية للباحث الاستاذ ابي بكر البوصيبي تحت عنوان : « أضواء على ابن مجبش التازي » التي نال بها جائزة المغرب الثانية عام 1972 .

وقد كتب مقدمة الكتاب الاستاذ عبد الله كنون مثنيا على الجهود العلمية الشاقة التي بذلها المؤلف لاجراج شخصية ابن مجبش من بين الركام التاريخي وتسلط الاضواء عليها بأسلوب علمي رصين ومنهج محكم واحاطة شاملة لجوانب الموضوع .

ونظرا لما تناولته مقدمة الاستاذ كنون من مسائل ذات ارتباط وثيق بالحياة الفكرية والثقافية في المغرب ، ارتأينا ان ننشرها على حدة .

واذ ننوه بهذه الاضافة القيمة ، وبصاحبها ، نهيب بالباحثين والدارسين الى مزيد من التنقيب عن التراث المغربي الزاخر الثري ، فلا تزال هناك موضوعات بكر لم تطرق ، وجوانب مغمورة ، لم يجلبها بحث، ولم تكشف عنها دراسة .

المغاربة ، نجد منها ما هو عام يتناول تاريخ المغرب السياسي والادبي ، ومنها ما هو خاص بدولة من دوله المعروفة ، ومنها ما يعنى بالتراجم على العموم ، كتراجم الملوك والقادة والعلماء والمشايع واهل الفضل من مختلف طبقات الناس ، ومنها ما يختص بتراجم طبقة معينة كالصوفية والفقهاء والادباء وغيرهم ، ومنها ما يؤرخ للمدن والقبائل والانساب والبيوتات ، ومنها مالا يهتم الا بحادثة معينة وواقعة مخصوصة ، ويدخل في ذلك الرحلات على اختلاف انواعها واتجاهاتها، الى ما يطول احصاؤه وينتسب تصنيفه .

تاريخ المغرب لا يشكو من فقر ولا قلة اهتمام ، فقد اولاه سلفنا كل عناية ، ولم يخل اى عصر من مؤرخ او عدة مؤرخين يسجلون أحداثه ، ويخلدون تراجم اعلامه سواء في ميدان السياسة او العلم او الادب ، بل ان كثيرا من الشخصيات التي لم يكن لها صفة من هذا القبيل ، الا ان الناس ينعتونها بالقوى والصلاح، قد عنى بها الكتاب والمترجمون وذكروها في كتبهم بغاية التنويه والاحتفال ، ومنهم من افردوا بالتأليف في حياتهم وخصوا بالذكر دون غيرهم .

واذا استعرضنا المؤلفات التاريخية التي وضعها

فنحن نرى أن ليس بتاريخ المغرب من خصاصة ولا ما يدعو إلى الشكوى من إهمال أبنائه له ، ولكن الذى يشكو تاريخنا منه الآن ، أمران اثنان أحدهما لا بد لنا فيه ، وهو ضياع الكثير من المؤلفات التاريخية الموضوعة في الأغراض التى أشرنا إليها كلاً أو بعضاً ، كالتأليف الخاصة ببعض المدن ، أو بعض الدول أو بعض الحوادث ، والتأليف المخصوصة بتاريخ المغرب القديم وأصول سكاته التى استقى منها ابن خلدون ، وبقي بعضها إلى قريب من عهدنا هذا بحيث وقف عليها أبو القاسم الزياني فيما يقول .

والثانى هو الدراسة المنهجية ، التى تستفيد من هذه الآثار وتصنفها وتأخذ منها ما يستدل به على حقيقة الأمر ، ويجلج الغموض الذى يعتور الكثير من الفترات التاريخية ، سيما مع الاستعانة بالوثائق الأخرى كالظواهر السلطانية ، والرسائل الرسمية ، والكشوف الحسابية ، والقوائم الإحصائية ، والضرائب ، والنوازل والفتاوى الشرعية ، بالإضافة إلى المعاهدات والاتفاقات السياسية والاقتصادية ، على النطاق الدولى ، وكتابات الأجانب في هذا الصدد وفي تاريخ المغرب وحوادثه وعلائقه الخارجية بعامة .

واتنا في هذا المجال لم نفعل شيئاً على الإطلاق ، وما يزال موضوع الدراسة التاريخية عندنا بكرة لم يحم حوله أحد ، وأترك الكلام على الدراسة والبحث مما تكنفه الصعوبات ، ويحتاج إلى مؤهلات عديدة ، والتفت إلى موضوع الترجمة فقط للمصادر الأجنبية التى تتناول تاريخنا من جميع جوانبه ، ولا سيما التاريخ الحديث ، فانتساعل ما فعل نحو مليون ونصف من الذين تعلموا بالفرنسية عندنا في هذا الصدد ، هل تعلموا الفرنسية ليتكلموا بها كان المغرب ليس له لغة وطنية ، ان عشرات الكتب الفرنسية التى وضعت عن القضية المغربية في الآونة الأخيرة ، تنتظر من ينقلها إلى العربية ، فماذا يعمل المتحلقون بلغة انتسول فرانس ؟ في الشرق

العربى لا يصدر كتاب بالفرنسية أو الإنجليزية أو غيرهما عن قضية من قضايا العرب ، إلا ويترجم حلالاً ، وربما نشر قبل وصوله إليهم بلفته الأصلية ، ويستفيد المترجم والناشر العربيان مادياً بدل الكتاب والناشر الأجنبيين ، فضلاً عن تنوير القارئ العربى وإطلاعه على ما يقال عن بلاده وقضاياها الوطنية . . . ولكننا في المغرب ما نزال لم نترجم شيئاً من الكتب التى الفت باللغات الأجنبية عن فرض الحماية وما قبلها وما بعدها ، إلى حادثة الصخيرات وهلم جرا . . .

هذا تلميح فقط إلى ما يشكو منه تاريخنا القومى، مما علينا أن نقوم به وننهض بعينه ونكف عن التذمر واتهام الغير بالتقصير ، في حين أن هذا الغير لا يالو جهداً في نطاق استعدادة عن تقديم ما تصل إليه يده وتستوعبه طاقته من أعمال ومنجزات لا يستهان بها ، وهنا أفكر أحد السادة ممن حصلوا قديماً على قدر لا بأس به من الثقافة المزروجة ، ويسهم ببعض الكتابات الصحفية من آن لآخر ، ومن موضوعاته المكررة التى لا يمل منها منذ أربعين سنة ، موضوع كتابة تاريخ المغرب ، وأنه لم يهتم به ، بل لم يفكر فيه أحد إلى الآن ، ويقترح بل يشترط لذلك شروطاً أهمها الإطلاع على ما كتبه الأجانب في هذا المضمار ، فكتبت كلها قرات كلامه هذا أنشد قول الشاعر :

لا بى بكر كلام واحد لا يتعدى
لا يرى من وصفه البس تان في البصرة بدا
واقول في نفسى ، ولماذا لا يبدأ هو ، فينقل على الأقل ، بعض كتب الأجانب التى يعرفها إلى العربية ويسهم بذلك في كتابة تاريخ المغرب ؟

الحقيقة أن الكسل الفردى داء استشرى فى طائفة من الشباب والمثقفين الكهول والشيوخ ، فلا ينتظر منهم إلا الانتقاد وإملاء الراى من أعلى ، فلنصرف النظر عنهم إلى من براهم الاختبار من هذا الداء ، وهم زمرة قليلة من العاملين المجدين المنتجين الناجحين .
ان من هؤلاء الاستاذ الباحث المتمكن السيد ابا بكر البوخصيبى ، الذى لم يشغله عمله في التفتيش

هذه ، اثبت المؤلف في كتابه تأليف ابن بجيش في الجهاد والحظ عليه بنصه الكامل ، وقارن بينه وبين كتابي ابن الخطيب ، وابن عاصم في الموضوع ، مقارنة لم يجد فيها عن الصواب من ترجيح كتاب ابن بجيش مضمونا وتفوق كتابي ابن الخطيب وابن عاصم عليه شكلا ، وهذا امر لا ريب فيه ، فابن بجيش مع تعامله للكتابة ونظمه للشعر لم يكن يصدر عن طبع ادبى مرهف كصاحبه ، وهذا ما اكده المؤلف ونوافقه عليه ، وان كان في بعض الاحيان ينسأه فيبالغ في تقرير كلامه بما لا يوجد فيه ، لحد انه تمنى لو احرق المسجد الاقصى قديما او تأخر عهد ابن بجيش الى حين احراقه ، ليكون قوله فيه ابلغ .

والاحظ على المؤلف كتابته (من ما) بغير الاصطلاح المعمول به وهو الادغام ، وقوله في كتاب المقتبس (1) في اخبار المغرب وفاس والانلس (بفتح اللام) ، فان ذلك لا يصح ، وتخالف السجعتين في اسماء الكتب معهودا كثيرا . على أن ضبط المؤلف لكثير من الالفاظ وحسه الرقيق بانكسار الوزن في الشعر ، يجعل مثل هذه الهنات من نواذر الهفوات ، التي قلما يخلص منها مؤلف ، او لا تمر على مصنف ، وانى أهنته بكتابه هذا ، بل أهنيء المكتبة المغربية بظفرها بهذا الأثر النفيس ، والباحثين المغاربة بباحث من هذا الطراز ، ينضم الى صفوفهم ، ويعزز جهودهم في نقض الغبار عن مآثر الاجداد ، ومفاخر البلاد ، واسأل الله أن يديم له التوفيق والسداد .

عبد الله كنون

بوزارة التعليم ، عن الاسهام بنصيبه في الدراسات التاريخية والادبية بهمة ونشاط ، واتحافنا بنتيجة اجتهاده وزبدة انتاجه . وها هو ذا باكورة عمله يطالعنا به في كتابه (أضواء على ابن بجيش التازي) ، انه ترجمة لهذه الشخصية المغمورة ، تكاد تكون كاملة ، اخرجها الكاتب من العدم ، واستعمل فيها مؤهلاته العديدة ، من ثقافة ادبية أصيلة ، ونظر مقارن موفق ، وفكر متمعن غواص ، فأخضع لها هذه المعلومات القليلة المنتشرة هنا وهناك ، عن شخصيته المدروسة ، وسوى منها ترجمة هذا العالم الجليل ، التي كان يكتنفها غمير قليل من الغموض ، وأصبحت بجده المشكور ، واضحة المعالم ، مجلوة على منصة التعريف ، ومع ذلك فقد سمى كتابه هذا (أضواء على ابن بجيش) ، وكنت أود لو سماه أضواء على حياة ابن بجيش ؟ ..

ومن تحقيقاته فيه ، انه ضبط اسم مترجمه الذي تخطت فيه الكتاب والمترجمون له مدى خمسة قرون ، فهو عند الشيخ أحمد بابا ابن بجيش ، بباء موحدة ، فحاء مهمل ، وباء ثانية ، وهو عند ابن عسكر بجيش بباء مثناة ، فحاء مهمل ، فباء ، سواء في النسخة المطبوعة او في مخطوطة عندنا مظنون بها الصحة ، لانها مرت بيد غير واحد من العلماء ، وكذا هو ايضا عند ابن القاضي في الدرة ، والناصري في الاستقصا ، ودع عنك المحدثين والمعاصرين من الكتاب ، في حين أن ما حققه المؤلف مسندا الى وثائق خطية من بلد المترجم ، فيها ظواهر ملوكية وغيرها ، هو انه (بجيش) بجيم مشددة مفتوحة ، بين باء مثناة وباء موحدة ، وقد كنت رأيته هكذا اي بجيم من غير ضبط في أحد التقايد ، فظننته تصحيفا نظرا لتمالؤ المصادر على جعله بالحاء المهمل ، واذا التصحيف في هذه المصادر لا في ذلك التقيد . والى جانب آثار المترجم الادبية ، كعارضته لمنفرجة ابن النحوى مع تحليلها والموازنة بينها وبين